هو ؟

صورة قلمية خاصة

للأستاذ محمد موسى عفيفى

مدرس بمدرسة الأمير فاروق الثانوية بالقاهرة وكلية أصول الدين

ليس إقليما من الأقاليم الواسعة ، ولا قطراً من الأقطار الشاسعة ؛ ولا جبلا تَحضُنُ بيضَها فى قُنَّتِهِ الأنوق ، ولا سَهْلاً نمنمهُ مُحمَرُ الشقيق ، ولا ساحلا تملأ بمختلف ألوان العقيق . ليس وادياً من الأودية ، ولا روضا ترفُّ ألوان أزهاره بالاندياء . ولا مركبا يجرى فى الدأماء . ليس بحراً طاميا ، ولا نهراً جاريا ، ولا عارضا هاميا . ليس كوكبا دريا : قمراً مضيئًا أو فرقدًا وضيئًا . ليس الصبح سطع وتنفَّس ، ولا الليل ادلهَمَّ وعسعس ، ولا الجو كلَحَ وَجهُهُ وَعبَسَ . ليس عاما مشهوراً كعام الوفود أو عام الفيل ، ولا شهراً اشتهر بفضل كالذى أنزل فيه التنزيل ، ولا يوما كيوم حليمة أو يوم الأرليل (١) . ليس الشتاء ذا البرد النافح ، ولا الصيف ذا الحر اللافح ؛ ولا الربيع يفاخر بالأرض السماء ، ولا الخريف يبرد فيه الهواء . ليس جيشا جرارا ، ولا حصانا كرارا ؛ ولا معقلا من المعاقل المنيعة، ولا أُطمًا من الآطام الرفيعة .

ليس من السوانح ، ولا من البوارح ، ليس داء يُضنيك ، ولا دواء يشفيك ليس مشموما تنتشيه ، ولا طعاما تشتهيه ، ولا شَرابا سائغاً تبتغيه .

---

(١) يوم من أيام العرب كانت فيه وقعة صلعاء النعام : موضع بديار بنى كلاب

هو : ليس جمادا ولا حيوانا ولا طيراً ولا نباتا ولا هواء ، ولا ملكا كريما ولا شيطانا رجيما :

هو : آدمى تام الآدمية ، مستكمل أمارات الانسانية ، وهو أشهر من البدر ، وأنمُّ عن نفسه من ضوء الفجر ؛ ومع ذلك ليس ملكا من ملوك الأنام ، ولا عظيما من العظام ؛ ولامن ورثة الأنبياء ، ولا من طبقة الفُصح الأبيناء ، ولا من أرباب الفلسفة الحكماء ، ولا من السَّراة الأغنياء ؛ ليس صانعا صَنِيع اليدين ، ولا تاجرا يضرب فى الربح بسهمين ، ولا زارعا مُلما بفلح الأرض وغرس الأشجار ، ولا محيطا بأسرار الأزهار وجَنْى الثمار .

ذهب سَمْعُهُ فى النَّدِيِّ ، ومع ذلك لم يعلَقه فهم ، ولم يقع من رواده فى وهم . يملأ اسمه وشخصه ذهنك كلما دنا منك ، وسرعان ما تنساه إذا غاب عنك ، لا تحفِلُهُ ولكنك تحتاج إليه ، ولا تباليه ولكنك تعتمد عليه ، تأخذه عيناك ولكنك لا تَطرِفه بعين الاحترام ، ولا ترمقه بنظرة الاعظام .

تعوَّد بسط الكف لا ليعطيك بل ليسلبك ، ومَدَّ يده إليك لا ليترضّاك ، بل ليتقاضاك ؛ والإقبالَ عليك لا ليسألك حالك ، بل ليَحْرَبك مالك ؛ يتفرس وجوه المنتدين كأن بينه وبينهم أمراً ، ويشزِرُ الزُّور كأنَّ له عندهم ثأرا ؛ يقطع عليك حديث الصديق والجليس ، ويمشى فى الأرض كما يمشى فى الجسم الرسيس . هل عرفته ؟

هو : معروق العظم ، ليس جُمَاليًّا فى ضخامة الفيل ، على أنه ليس رسما كالحمل الهزيل ، رَبْعُ القامة ، متوسط الهامة ، مخروط الوجه ، أجرد أثرم ، نائى عظم الترقوة ، هضيم البطن ، لطيف الكشح ، طويل اليدين ، مُعَرَّق عظم الساقين ، له أذنان بين بين ، وشفتان ليس بهما كثير شين ، وعينان كأنهما مغمضتان ، وجفنان دائما مطبقان ، أما رقبته فكذَوْبِ القار ، طويلة ودقيقة كأن أعراقها البارزة أمراس شدت من فوق إلى رأسه ومن تحت إلى صدره ، وأما شاربه فبقية شعر سوداء كأنها تحت أنفه خنفساء . هل عرفته ؟

هو : خامد الذكاء ، أخص صفاته الغباء ، ككَيْسان(١) يفهم غير ما يسمع ، وكمروان (٢) إذا قيل له اطرح يجمع ، تستعجم عليه المدارك الظاهرة ، وتَستَسر الأشباح الماثلة . يعد ويخلف عن غير عمد ، ويأتمر بما تأمر ولكنه لا ينفذ بدون قصد .

إذا كظت أسرة النادى بهوه وحجراته رُبكواستحار ، وضجر واستجار ، الغائب عنده حاضر ، والحاضر مسافر ، وأحمد عنده محمود ، ومحمود عبد المعبود ، ونجيب عنده غريب ، وغريب لبيب ، وصيام عنده رمضان ، ورمضان شعبان ، ومكاوى عنده طنطاوى ، ومدنى عنده قرنى . هل عرفته ؟

هو : ليس فيه منةالفتيان الأقوياء ولا رعشة الشيوخ الضعفاء . دائب الحركة يذرع الأرض ذرعا ، كأنما يثيرها ليزرع الحب زرعا ، لا تراه جالسا كما تجلس لأنه لم يتعود الجلوس على الوثير ، ولم يُرض نفسه على افتراش الحرير . وهو مسكى اللون لم تحل عليه الشمس رداءها بهاء ، ولم يخلع عليه القمر من ضيائه رواء ، ولم يعره وجه الصباح غرته البيضاء ، ولا السماء الصافية طلعتها الزهراء .

هو ليل لبس النهار دثارا ، وتخذه رداء وشعارا ، اختصر فى ملبسه فصول العام ، فالربيع والخريف عنده فضل ، والشتاء والصيف عنده فصل ، يرتدى فى أثنائهما ثوبا رَفلاً واسع الأركان ، طويل الأردان ، فى لون الجمان أو الأقحوان ، وعلى رأسه « طربوش » يُميله إلى اليمين فيستر الحاجب الأيمن ونصف الجبين ، وفى رجليه نَعْلَة بيضاء نصل لونها . هل عرفته ؟

هو : الذى بينه وبين النهار طباق ، وبينه وبين الليل وفاق ، هو الذى يبرد لك الماء إذا ارفض عرقك أو نال منك الحر ، ويدفئك إذا أرعشك القُرُّ ، هو الذى يقريك لرقة حاله من غير ماله ، هو الذى يحفظ عصاك ، ويرجو رضاك ، ولا يأبى نداك . هو « محمد خادم النادى » .

محمد موسى عفيفى

(١) مستهل كان لبلادته يكتب غير ما يسمع .
(٢) كان كاتبا على خراج بغداد ، وقد عرف بضعفه فى الحساب .